الأسطورة وأسرار الطبيعة

الأستاذ: بوشيخي علي
جامعة سيدي بلعباس

لقد أثارت الطبيعة مخاوف الإنسان الأول،وأدهشته وطرح العديد من التساؤلات ،وبحث عن التفسيرات فقاده خياله إلى الاعتقاد بوجود كائنات عديدة تملأ الكون تحكمه وتسيطر عليه وتتحكم فيه و تخضعه لمشيئتها و إرادتها فالبيئة الاجتماعية تتكون إذن من البيئة الأساسية المادية التي شيدها الإنسان، ومن النظم الاجتماعية و من المؤسسات التي أقامها فهي الطريقة التي نظمت بها المجتمعات البشرية حياتها و التي غيرت البيئة الطبيعية لخدمة حاجات الإنسانية.

إن الحياة الطبيعية لذلك الإنسان أتاحت له فرصة التأمل في مظاهر الطبيعة وتمييز قواها و عناصرها و خصائصها و نظامها ، كما لفتت انتباهه التغيرات الجوية و تأثيراتها المختلفة في مظاهر عالم الأرض و السماء ، مما طرح أمامه سلسلة غير متناهية من الأسئلة المختلفة المتعلقة بالبداية ، و الخالق والمخلوق و الكون و الكائن ، الوجود و الموجود ، فأخذ ذلك الإنسان يحاول الفهم و التفسير ضمن حدود إمكانياته ، الفكرية و قدراته العقلية مستغرقا في آفاق التأملات وعالم البحث و التطلعات " فتصور أن كل ما في الكون ينبض بالحياة وأن لكل منها قصة أسطورية تصور العالم مملوءا بالآلهة المتجسدة في قوى الطبيعة و مظاهرها المختل . (1)

فعامل الطقس يؤثر في مزاج الإنسان و يقيس مدى قوته وضعفه في طريقة تفكيره فمعروف أن الحرارة تؤثر بطريقة مباشرة أو غير مباشرة على الحياة الإنسانية فالمناطق المعتدلة هي التي تكثر فيها التجمعات البشرية و يقام فيها العمران و تزدهر فيها الحضارة و ذلك يكون سببا في رقي أهلها و توفر شروط الحضارة فيهم بالإضافة إلى ذلك أنهم يكتملون من حيث الخلق(بفتح الخاء) والخلق (بضم الخاء)خلقهم . المحيط الجغرافي و الطبيعي من مناخ و موقع و غيرهما له تأثير فعال في حياة الأفراد و من ثم في حياة الجماعة و الظواهر التي تخلفها هي نتيجة لنشاط الأفراد الذين يكونون المجتمع ،وللمناخ دور كبير في اختلاف وتباين الأمزجة وذلك يكشف لنا حتما إلى طبائع آداب ،عادات و تقاليد الشعوب من منطقة لأخرى فالطبيعية والإنسان كل متفاعل يؤثر الواحد في الآخر.

ولقد حضيت الأسطورة باهتمام بالغ في التفكير الوجودي لان مشكلة عثور الإنسان على هوية لنفسه ،هي مشكلة كامنة في فصميم الوجود نفسه حسب تعبير جون ماكوري الوجودية ،واختلف التفكير الأسطوري من عصر لآخر فعند المصريين القدامى بدا عندما آخذو بالزراعة الدورية المنظمة حسب الفصول،ورأوا الكون انه نشأ من الماء (نهر النيل) ،وظلت الأسطورة المبنية على الشعائر والطقوس الدينية متجلية في مختلف أنماط تفكير المجتمع الهندي القديم ولازال ،وهو الشيء نفسه في الصين القديمة(بحكم النسق الاجتماعي والنسق الايكولوجي والنسق الديني) من خلال فلسفة كونفشيوس معتبرا أن الشعائر الدينية والطقوس هي أساس النظام الكوني ،هذا الفكر الذي كان وليد التصورات الطبيعية القديمة التي نشأت عن تقلب الليل والنهار وفقا لنظام "الطاو" ،وفي اليونان القديمة تعتبر الأساطير الإرهاصات الأولية لميلاد الفلسفة اليونانية ،هذا ما تبرزه أساطير هزيود،وهوميروس... كما كانت الأسطورة أيضا حاضرة في الفكر العربي القديم من خلال تعابير الشمس والربيع ،وعبدوا القمر والكواكب وعلى ضوء هذه الوقفة التاريخية للأصول التاريخية للأسطورة يمكننا القول أن الأسطورة ظهرت من اجل تفسير الكون وطبيعته وتبحث عن مصير الإنسان المجهول فكان يصارع من اجل كشف الغموض وفك الألغاز والأسرار الطبيعية.

يتحدث العلامة ابن خلدون عن تأثير العوامل الجغرافية على الحياة الإنسانية فيقول:"إن المعمور من هذا المنكشف من الأرض إنما هو وسطه لإفراط الحر في الجنوب منه و البرد في الشمال و لما كان الجانبان من الشمال و الجنوب متضادين في الحر و البرد و جب أن تتدرج الكيفية من كليهما إلى الوسط فيكون معتدلا .... فلهذا كانت العلوم و الصناعة و المباني و الملابس و الأقوات و الفواكه بل و الحيوانات و جميع ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال ، و سكانها من البشر اعدل

أجساما و ألوانا و أخلاقا و أديانا ، حتى النبوات فإنما توجد في الأكثر فيها ، لم نقف على خبر بعثة في الأقاليم الجنوبية و الشمالية و ذلك أن الأنبياء و الرسل إنما يختص بهم إكمال النوع في خلقهم و أخلاقهم".(2)

وحسب رأي محمد الخطيب أن التفكير الأسطوري بدا يبرز للوجود لحظة ازدياد حدة التأثير وازدياد حدة العلاقة بين الإنسان وذاته وبينه وبين الطبيعة،فهو حسب رأيه هذا التفكير ما هو إلا رد فعل ذهني تلقائي،على كافة التساؤلات التي أثارها الوجود البشري .

لقد واجه الإنسان الأول أفكار القدر المحترم و المصير العسير ، و دور المفاجآت في تغيير الوقائع ، وكان مفهوم الحظ من المفاهيم التي ظهرت في مخيلة، فراح يجسدها في صور إنسانية و يمنحها كل الاحترام و تقديس و ينسب إليها أسباب النجاح وعوامل الفشل في مختلف ميادين الحياة ، و قد تصورها في صورة امرأة معصوبة العينين و ذلك إشارة إلى قيامها بمنح السعادة بشكل اعتباطي وفجائي ".(4)

كما لا يمكن فصل المعطى الجغرافي الطبيعي عن الأدوات والآلات والوسائل التقنية التي تتوفر للجماعات الإنسانية من استعماله وتحويله لها ، بحيث يترتب عن وجود الإنسان في هذا النسق الايكولوجي ظهور أنماط و أساليب للتفكير و العمل تهدف إلى استغلال العناصر الطبيعية ، وتحسين الوسائل و تطويرها لتصبح هذه الأساليب و الأنماط قاعدة التراث الثقافي ، و الأصول الأولى لمقومات الحضارة التي تتبلور من أجلها التشريعات و القوانين ، والتي تنعكس في نظم لتقسيم العمل و توزيع الاختصاصات و تنوع الوظائف التي يتعين على أعضاء المجتمع القيام بها في نوع من التكامل و التنظيم ، مما يحقق الثبات و الاستمرار في بناء المجتمع و ينسق العلاقات التي تقوم بين الأشخاص و الجماعات(5).

و في حدود التصورات للظروف الايكولوجية أو النسق الإيكولوجي (écosystème) الذي يعتبر الإنسان جزءا من هذا النسق ، تدرس الإيكولوجية الوسائل التي من خلالها تتفاعل كل الكائنات الحية داخل البيئة كما تدرس علاقات تأثير الكائنات مع وسط الذي تعيش فيه . (6)

يرتبط المجتمع الإنساني ارتباطا وثيقا من خلال عملية تبادلية للمواد الإنتاجية و الاستهلاكية حيث تمده البيئة الطبيعية بكل العناصر والظروف الملائمة للإستمراره و يحصل الإنسان على هده المستلزمات عن طريق استخدام أعضاء جسمية بدون وسيط خارجي التي يترتب عليها شكل معين من العلاقة بين الإنسان بوسائله التكنولوجية و البيئة الطبيعية و ما تفرضه تلك البيئة الطبيعية من أنماط معينة من العلاقات بين الأشخاص و الجماعات في المجتمع ، و ما يحيط استثماراتها من قيم و معتقدات ، واثر ذلك في تكوين أنساقها السياسية و نجد في هذا أن الظروف الايكولوجية تلعب دورا على درجة عالية من الأهمية في تشكيل فكر أسطوري و بناء مجتمع و في تكوين بناء سياسي خاصة في المجتمعات القبلية، كما هو الحال لدى مجتمع طوارق الاهقار بحيث يرتبط هذا المجتمع المحلي ارتباطا وثيقا من خلال عملية تبادلية للمواد الإنتاجية و الاستهلاكية حيث تمده البيئة الطبيعية بكل العناصر والظروف الملائمة للإستمراره و يحصل الإنسان على هده المستلزمات عن طريق استخدام أعضاء جسمية بدون وسيط خارجي كما يرتبط كل ذلك بالبناء السياسي الانقسامي وفرضت نمطا اقتصاديا معاشيا.

فالواقع في الأسطورة حسب أحمد كمال زكي " قد يبدو خارقا ، إلا أنه يظل شيئا قام حقيقة ، ويظل في الوقت نفسه يحكي تاريخا مقدسا ، و يصور مواقع تضرب في العصور الخرافية معانقة إلها أو كائنا أو مفكرا حاول أن يفسر ظواهر الطبيعة و يضع أوليات المعرفة " (7)

و جاء في تعريف الأسطورة " إنها حكاية إله أو كائن خارق ، تفسر بمنطق الإنسان البدائي ظواهر الحياة و الطبيعة و الكون و النظام الاجتماعي ، وأوليات المعرفة ، وهي ترجع في تفسيرها إلى التشخيص و التمثيل و التحليل ، وتستوعب الكلمة و الحركة و الإشارة والإيقاع ، وقد تستوعب تشكيل المادة ، وعند الإنسان البدائي عقيدة لها طقوسها ".(8)

فالأسطورة هي محاولة لفهم الكون بظواهره المتعددة أو هي تفسير له ، إنها إنتاج وليد الخيال ، ولكنها لا تخلو من منطق معين ومن فلسفة أولية ، وعلى هدا فإن الأسطورة الكونية شأنها شأن الفلسفة تتكون في أولى مراحلها عن طريق التأمل في ظواهر الكون المتعددة و التأمل ينجم عنه التعجب كما أن التعجب ينجم عنه التساؤل ، فإذا تساءل الإنسان ، طلب الإجابة في إصرار عن سؤاله ، حتى إذا وجد

الجواب سؤاله قرت نفسه ، لأن الإجابة حينئذ تكون حاسمة بالنسبة إليه ، فإذا تمثل الكون للإنسان بهذه الوسيلة عن طريق السؤال و الجواب فإنه يتكون بذلك شكل تسمية الأسطورة الكونية 3 ،الأسطورة إذن تجسد خيال ذلك الإنسان البدائي و تمثل فكره و تدل على أولى محاولاته في فهم القوى الطبيعية المختلفة التي تأمل الإنسان فيها طويلا محاولا تعليلها و تفسيرها وشرحها و تبريرها فتراءت له في لحظات كالغيبوبة أفكار توار اثنها الأجيال المتعاقبة .

إن العوارض البيئية والاجتماعية نحتت مع الزمن المخيلات الإنسانية لتهيئها إلى تقبل الأسطورة أولا ثم إلى التشبث بها كحقيقة من حقائق الوجود والبحث الدءوب عن هوية والدفاع المستميت عنها هو الذي فجر إبداع الأساطير وبخاصة أساطير التكوين.

ويظهر الإنسان ككائن اجتماعي داخل جماعة معينة هدفها تحقيق أقصى إشباع ممكن لاحتياجاته عن طريق العملية الإنتاجية، ويستخدم في دوراته الطبيعية دون فصلها عن البيئة الطبيعية.

ففي المناطق الجبلية كما هو مثلا الحال عند طوارق الاهقار ارتبطت الأسطورة لدى هذه القبائل بالجبال(سلسلة جبال الأتاكور بتمنراست توجد بها أعلى قمة جبلية في الجزائر قمة طاهات) وأصبح تفسير الظواهر الطبيعية بالأساطير حيث كل جبل يحمل أسطورة،فللجبل قيمة خاصة في هذا المجتمع المحلي فهو ليس مجرد جبل بل يرمز تارة إلى الحكمة و الخلود ،و في مسار التكوين القدسي ، تعتبر الأسطورة الجبل أحد محاور الكون ، والأداة التي تسمح لإنسان الأرض الاتصال بالكائن أو بالكائنات العليا ، فهل معنى هذا أن الجبال تستمد قداستها من ارتفاعها مثلا ؟

يعتبر الإنسان الأسطوري أن جبله - هو بالذات - أكثر ارتفاعا (حتى إذا لم يكن كذلك جغرافيا) من جبال الآخرين ، وهو بالتالي أقرب ما يكون إلى السماء . (9)

كانت الأسطورة العربية تعبير أن الأماكن المقدسة هي في أعلى مرتفعات العالم (عالمها طبعا) ، و أن جبل أبي فبيس في الحجاز ليس جبلا عاديا : أنه مسئول ، ناطق أمين مقدس ، وهذه الحكاية الأسطورية تكشف لنا سر الجبل و خروج الحجر الأسود منه (الحجر المقدس بدوره كما سنرى) : " بينما إبراهيم يبني البيت إذ ناداه جبل أبي فبيس : يا إبراهيم أن لك عندي وديعة فخدها ، فلما دنا منه انشق الجبل و خرج منه الحجر الأسود " . كما أن الجبل يتحول إلى شيء ثمين و مقدس لمجرد أن يلامسه كائن قدسي : " ولما صعد موسى الجبل لمناجاة ربه ، صار عقيقا ، فلما نزل موسى عاد إلى حالته الأولى".

ارتبطت الأسطورة أيضا بالتاريخ فالأسطورة والتاريخ ينشأن عن التوق إلى معرفة أصل الحاضر فهي وسيلة يفهم الإنسان من خلالها نفسه و يعي شرطه (10) ، فتوقنا الآن لقراءة وفهم التاريخ عن ذات الموقف القديم الذي كان يدفع أسلافنا لتلاوة الأساطير والاستماع إليها . أما الصلة بين الأسطورة والتاريخ فهي قوية جدا فالمادة الأسطورية مصدر هام للمادة التاريخية، ولفهم حقيقة العالم القديم، فقد كانت الأسطورة هي الوعاء الذي وضع فيه الإنسان القديم خلاصة فكره و أحداث حياته ومضمون حركت.

إن العوارض البيئية والاجتماعية نحتت مع الزمن المخيلات الإنسانية لتهيئها إلى تقبل الأسطورة . أولا ثم إلى التشبث بها حقيقة من حقائق الوجود والبحث الدءوب عن هوية والدفاع المستميت عنها هو الذي فجر إبداع الأساطير وبخاصة أساطير التكوين،لاشك أن الأسطورة من حيث هي فلسفة كشف يصبح عن طريقها الكون معروفا لدى الإنسان ، هي أشبه بالنبوءة عند الإغريق ، إذ أنهما تنتميان إلى مجال واحد من الاهتمام الروحي الشعبي ، يدفع الإنسان إلى طلب المعرفة ، و إلى الإجابة الفاصلة عما يجهله ، و الفرق بين النبوءة و الأسطورة تختص بالظواهر الكونية " (11)

فالأسطورة رمز للتفكير والتساؤل فهي تعبير واسع عن علاقة الإنسان بمحيطه، بحيث حاول الإنسان الأول لفهم هذه الظواهر الطبيعية،هذه الأساطير التي تحولت مع مرور الزمن إلى معتقدات فكرية تتحدث عن أصل العالم .فهي تعبير عن نظرة الإنسان البدائي لما وراء الطبيعة،بحيث وقف الإنسان عاجزا عن تعليل أسرار الطبيعة ،فكانت بالنسبة للإنسان الأول واقع معاش ،يعكس البيئة المعاشة .فالأسطورة عند ليف ستراوس هي عنصر أساسي مكون للفكر الإنساني قديمه وحديثه،.فهي تاريخ الإنسان والكون معا،وعند فراس السواح هي حكاية مقدسة ذات مضمون عميق يشف عن معاني ذات صلة بالكون والوجود وحيلة الإنسان،فهي قصة خرافية لها تصور شامل عن العالم وعن مكانة الإنسان(12)

فما هي إلا وسيلة من وسائل صراع الإنسان مع المحيط الطبيعي و الاجتماعي و التكيف معه من أجل بقاءه و استمراره في الحياة. لذلك خلق الرجل الأول صورة أقرب إلى الطبيعة منها إلى الصورة الواقعية أي الصورة التي تنبثق من المحيط الاجتماعي الذي يعيش فيه.

وان هناك علاقة جدلية بين الأسطورة و الطبيعة ،وعلاقة دائمة و مستمرة بالمحيط الاجتماعي و النفسي للمجتمعات البشرية فلا نستطيع فهم وظائفها و أبعدها إلا بوصفها في سياقها الاجتماعي و الثقافي و النفسي الذي تحيط الفضاء الذي وجدت فيه ، و المؤشرات المختلفة التي دفعت الأناس الأوائل إلى إنتاج هذه الأساطير لأنها تتأثر بها و تؤثر فيها،فهي جزء من البنية الأساسية من الفكر الإنساني الفكر .

المراجع:

1- صلاح أبو فلح،الأسطورة،مدار حفص تونس،ص27
2- مقدمة ابن خلدون دار الكتاب اللبناني،بيروت ،ص141 ،1986
3- محمد الخطيب،الفكر الإغريقي، منشورات دار علاء الدين ،ط1،1999 ص12
4- بشير زهدي، مقدمة في الميتولوجيا،عالم المعرفة ،عدد46،ص22
5- مصطفى الخشاب - الاجتماع المصري - القاهرة ، ص31 ،1982
6- - محمد عجيب - موسوعة أساير العرب عن الجاهلية ودلالتها - دار الفرابي بيروت 1994 ص 97
7- احمد كمال زكي ،الاساطير، دراسة حضارية مقارنة، بيروت لبنان، ص123، 1979
8-صلاح أبو فلح - الأسطورة – مرجع سابق 29
9- خليل احمد خليل ، مضمون الأسطورة في الفكر العربي دار الطليعة للطباعة،بيروت، 1986، ص 56
10_ ABD- ELRAHIM LAMCHIL ALGERIE EN CRISE ED HARMATAN 1991 P 183
11- مليسيا إلياذ - الأسطورة في القرنين التاسع عشر دار الطليعة للطباعة و النشر ط 3 - 1986 - ص 40
12-فراس السواح ،الاسطورة والمعنى،دراسة في الميتولوجيا ،دار علاء الدين،ص14 1997